خطبة صلاة الجمعة 13/12/2013 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(اعتياد الذَّنْبِ)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: 170].

وقال في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104].

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].

وقال في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: 21].

يَا رَبِّ إِن عَظُمَت ذُنُوبِي كَثرَةً ... فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ

إِن كَانَ لاَ يَرجُـوكَ إِلاَّ مُحسِنٌ ... فَمَن الَّذِى يَدعُو وَيرجو المجرِمُ

مَا لِي إِلَيـكَ وَسِيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَا وَجَمِيـلُ عَفـوِكَ ثُمَّ إِنِّـي مُسلـمُ

عنوان خطبة اليوم:

(اعتياد الذَّنْبِ).

أيها الإخوة:

خمسة في الذَّنْبِ شر من الذَّنْبِ: الإصرار على الذَّنْبِ شر من الذَّنْبِ ، والمجاهرة بالذَّنْبِ شر من الذَّنْبِ، والسرور بالذَّنْبِ شر من الذَّنْبِ، واستصغار الذَّنْبِ شر من الذَّنْبِ، والدعوة إلى الذَّنْبِ شر من الذَّنْبِ.

إذاً هي خمسة: الإصرار، والمجاهرة، والسرور، والاستصغار، والدعوة.

وبعبارة أخرى:

إذا أذنبت فلا تفعل خمساً: لا تُصِر, ولا تُسَر, ولا تجاهر, ولا تستصغر, ولا تدعُ إلى الذَّنْبِ.

أيها الإخوة:

إن مما يخالف الفطرة ويجانب الإيمان أن يعمل المسلم الذَّنْبَ ويكرره، ثم يتركَ الندم عليه والتوبة منه، ثم يجاهرَ به ويدعو له، ثم يعتادَه ويألفَه, فينسى أنه ذنب, ويغفَلَ عن أنه يخالف جبار السماء والأرض.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19].

إنك عندما تسمع مراراً وتكراراً عن أمهات يَقُلن: إذا أنا مِتُّ فالذَهَبُ للبنات, والعقارات للصبيان، تُدرك بأن عدداً من الناس ألفوا المعصية حتى اعتادوها, وكرروا الذنب حتى تعارفوه، تُرى هل نسينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»؟! [أخرجه أصحاب السنن].

فنظام الإرث مفروض من حضرة الله تعالى، والحقوق موزعة وليس لأحد كَبُر أو صَغُر ، بَعُد أو قَرُب، أن يمنع صاحب حق حقه إلا برضاه.

فهل نسينا أم أنه تكرار للذَّنبِ حتى صار عادة؟!.

إنك عندما تسمع المرة تلو الأخرى عن زوجة تركت بيت زوجها ومضت تاركة ابناً صغيراً لم يتعد السنتين, وبنتاً جاوزتهما بقليل، وهي من ستة أشهر لا ترضى رجوعاً ولا تطمع في طلاق، إنك عندما تسمع ذلك تُدرك بأن أقواماً فينا اعتادوا الذنب وألفوه.

تُرى هل نسينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إذا باتَتِ المرأةُ مُهاجِرَة فراش زوجها لعنتْها الملائكةُ حتى تصبحَ»** وفي رواية: **«حتى تَرْجِعَ»**؟! [أخرجه البخاري ومسلم].

ألم يسمع أبوها وأمها وأخوها وأختها بهذا الحديث؟! أو أن الذنب طغى والمخالفة عمت وصارت عادة؟!.

إذا وصلتك رسالة عبر "الواتس أب", أو قرأت أخرى على موقع التواصل الاجتماعي.., ووجدت فيها صورة ماجنة, أو كلمة نابية...., علمت أنها مرّت على عشرات قبلك بل مئات إن لن يكن أكثر، وعددٌ لا يستهان به مررها ناسياً أن إشاعة المجون مجون, وتمرير السوء سوء.

تُرى هل نسينا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؟! [النور: 19] .

أم أن بعضنا اعتاد المزاح ولو خالف الشرع؟! والضحك وإن فارق الخلق الحسن؟!

عندما يطلّق رجل زوجته ويدعوها للخروج من بيتها، أو تدعوها لذلك أمها وأبوها، أو لا ترضى هي البقاء في البيت بعد سماع كلمة الطلاق، تتساءل هل سمع القوم بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؟! [الطلاق: 1].

فلا يحل لامرأة طُلِّقَت أن تخرج من بيت الزوجية, ولا يحل لرجل طلَّق أن يخرج مطلقته من البيت، حتى تنتهي العدة.

تُرى هل صار الذنب عندنا عادة واعتدنا المعصية؟!

إنك عندما تسمع في الأسواق التجارية قولَهم: "ألف قلبة ولا غلبة"، فينكِل البائع لعقاره عن البيع بعد إبرامه العقد واستلام العربون, لأن زبوناً سيدفع أكثر جاء به الدلال.

وينكِل البائع لبضاعته عن البيع بعد استلامه كامل الثمن ووعدِه بتسليمها بعد يومين, لأن الأسعار ارتفعت بعد ذلك بيوم واحد.

وينكِل الموظف عن عقد التوظيف الذي وافق عليه عند بداية العمل, وفيه أنه لا يترك العمل قبل إعلامه شركته بعزمه على الترك قبل ثلاثة أشهر على الأقل، ذلك لأنه أتيحت له فرصة عمل أحسن وأسهل.

أنسي كل هؤلاء قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾؟! [المائدة: 1].

ترى هل نسينا أو أنه الذَّنْب ألفناه واعتدناه؟!

أيها الإخوة:

المرضى ثلاثة:

فمريض يعلم مرضه ويسعى في علاجه, فهذا نتوقع له العافية.

ومريض يعلم مرضه ويعجز عن علاجه, فهذا ندعو له بالعافية.

وثالث لا يعلم أنه مريض, فلا يسع في العلاج, ولا يلتفت إلى الدعاء, فأنى له العافية؟

وإن اعتياد المعصية أخطر بكثير من المعصية, لأنه ينسي فاعلها التوبة، ويبعده عن الإقلاع عنها.

وإني وجدت أسباب الاعتياد على الذنب: الجهل بالذنب، والإصرار عليه، والمجاهرة بالذنب، وصحبة أهل الذنب.

وعلاجه: أضدادها: فالعلم, والتوبة, والاستتار، وصحبة الأخيار .

كان "عمر بن عبد العزيز" يخطب فيقول: (أيها الناس من ألم بذنب فليستغفر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإن عاد فليستغفر الله وليتب، فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها).

ولما قال تعالى في سورة "آل عمران" في وصف المحسنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ

جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: 135، 136].

قال العلماء: إن نصوص الاستغفار المطلقة, تقيد بما ذكر في آية "آل عمران" من عدم الإصرار.

وقَالُوا: ارْتِكَابُ الْكَبَائِرِ أَهْوَنُ مِنْ الِاسْتِصْغَارِ بِالصَّغَائِرِ, لِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ يُرْجَى لَهُ أَنْ يَرْجِعَ إلَى اللَّهِ وَيَتُوبَ, وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالصَّغَائِرِ قَلَّ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ ذَلِكَ, لِأَنَّهَا عِنْدَهُ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه, وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً, كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم, فجعل الرَجُلُ ينطلق فيجيء بالعود, والرَجُلُ يجيء بالعود, حتى جمعوا سواداً, فأججوا ناراً, وأنضجوا ما قذفوا فيها**».

أيها الإخوة:

إن الشدة التي نزلت بنا حَرِيٌّ بأن تُعِيدنا جميعاً إلى مراجعة أنفسنا فيما اعتدناه, من فِعل ما نهينا عن فِعله, أو ترك ما أُمرنا بفعله، لأنني قرأت في "سورة الأنعام" قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : 42 - 45].

والحمد لله رب العالمين